الأخبار
al-akhbar

■ رئيس التحرير ـ المدير المسؤول:
ابراهيم الأمين

■ نائب رئيس التحرير:
بيار أبي صعب

■ مديرا التحرير:
إيلي شلهوب،
وفيق قانصوه

■ مجلس التحرير:
محمد زبيب
حسن عليق
مهى زراقط
إيلي حنا
أمل الأندري
شربل كريّم

■ صادرة عن شركة
أخبار بيروت

■ المكاتب بيروت ـ
فردان ـ شارع دونان
ـ سنتر كونكورد ـ
الطابق السادس
■ تلفاكس:
01759500
01759597
■ ص. ب 113/5963

■ الإعلانات
الوكيل الحصري
شركة بروموفيكس
01/788200

■ التوزيع
شركة الأوائل
01/666314_15 ـ
03 / 828381

■ الموقع الالكتروني
www.al-akhbar.com

■ صفحات التواصل
/AlakhbarNews
@AlakhbarNews
/alakhbarnews-paper

ما الذي يخيف أميركا في إيران؟ عـ

عامر محسن*

خبرٌ مرّ منذ أسبوعين ولم يحظَ بتغطية اعلامية وافية، ولكن المختصين والمعنيين قرأوه باهتمامٍ بالغ: أعلنت إيران قيامها بأوّل تجربة حيّة لنظام الدفاع الجوي «بافار-373»، الذي يُقال انّه يوازي - أو استنساخ عن - نظام «اس 300» الروسي. في الوقت نفسه، عرضت وسائل الإعلام الايرانية أوّل صورة لأحد الصواريخ الخاصة بنظام «بافار»، وهو يشبه الى حدّ بعيد الصاروخ المستعمل في «اس 300». تمثّل التجربة بدء اكتمال الحلقة الأخيرة في منظومة الدفاع الجوي الإيرانية، والتي تتكوّن من أنظمة عدّة تعمل على مديات عدة، بعضها تطويرٌ لأسلحة اميركية قديمة، وبعضها الآخر استنساخٌ لرادارات وصواريخ اجنبية، ومنها ما هو مزيجٌ بين الاثنين.

تقدير القوّة العسكرية في إيران مهمة صعبة إلى حدٍّ بعيد، فالعديد من المشاريع تحاط بالسرية، ولا يكشف عنها الا بعد اكتمالها، فيما تزيد دعاية وزارة الدفاع من الغموض، فيتمّ عرض بعض النماذج البحثية والتجريبية على انّها أنظمة قد دخلت طور الانتاج، ويتمّ الخلط بين المنجزات الفعلية والدعاية التي تهدف الى التضليل. وكثيراً ما تفسّر الصحافة الايرانية بيانات الجيش بصورةٍ خاطئة (والاعلام، بشكل عام، معروفٌ بجهله في القضايا العسكرية وتغطيته القاصرة لهذه المواضيع)، فتساهم في تغذية الالتباس.

ما نعرفه هو أنّ الولايات المتحدة وإسرائيل كانت تخطّط جدياً لحرب ضدّ إيران، أو أقلّه حملةً جوية لضرب البرنامج النووي الإيراني وأهداف عسكريّة اخرى، منذ أيّام غزو العراق. حتّى أنّ إحدى كبريات شركات الطاقة في العالم تلقّت تقاريراً من الاستخبارات الروسية، عام 2006 تؤكّد أن الحرب حاصلة في الأشهر المقبلة، فما الذي أجّل المواجهة طوال هذه السنين حتّى أصبحت سيناريو مستبعداً وغير محبّذ بالنسبة للجيش الأميركي، على الرغم من الاحتجاجات الإسرائيلية؟

شروط اللعبة

لو كان الهدف هو عقد مقارنة عسكرية بين قدرات إيران والقدرات الأميركية، لكانت الإجابة سهلة وواضحة: لا يوجد أيّ نوع من التكافؤ بين موارد وامكانيات البلدين، لا من ناحية الميزانية ولا المستوى التكنولوجي ولا التجهيز والمعدّات.

أكثر الدبابات الإيرانية قديمة، عمرها أكبر من عمر الثورة، والأمر نفسه ينطبق على سلاح الطيران. آخر صفقة عسكرية جدية عقدتها إيران مع الخارج لتحديث الجيش كانت في بداية التسعينيات، حين اشترت عدداً من دبابات «تي 72» وطائرات «ميغ 29» من روسيا - إضافة الى غواصتين - هي «أحدث» الأسلحة المستوردة في ترسانة إيران التقليدية اليوم.

من ناحيةٍ أخرى، فإنّ المواجهة مع إيران لا تنطوي على حرب مباشرة عبر حدود البلدين، بل إنّ على المهاجم ارسال قواته الى منطقة تبعد آلاف الكيلومترات عن البرّ الأميركي، ونشرها على مسافة طيران من إيران، وتأمين طرق آمنة للتزويد الجوي بالوقود، والسيطرةً على بحيرة ضخمة - هي الخليج العربي - يقلّ عرضها في كثير من الأماكن عن المئتي كيلومتر وعمقها عن الخمسين متراً. دخلت البحرية الأميركية الخليج في الثمانينيات، مستغلّة ظروف الحرب بين العراق وايران، وفرضت نفوذها بالقوة بعد سلسلة مناوشات تحوّلت الى حربٍ خاطفةٍ ضدّ البحرية الإيرانية، كسبتها القوات الاميركية بسهولة («عملية فرس النبي»). والعراق نفسه لم يكن راضياً عن هذا التمدّد الاميركي، وإن كان موجّهاً ضدّ عدوّه، فضربت طائرة عراقية عام 1987 الفرقاطة الأميركية «ستارك» بصاروخ «اكزوسيت» فرنسي الصنع، موقعة اكثر من 35 قتيلاً أميركياً.

قالت الحكومة العراقية إنّ الهجوم قد حصل بالخطأ، ولكنّ العديد من المحللين اعتبروا الصاروخ رسالةً عراقية لثني أميركا عن التواجد العسكري في تلك المنطقة الاستراتيجية - خصوصاً مع وجود ادعاءات بأن الطيار لم يعاقب، بل تمت ترقيته اثر «الحادثة» (فرضت الولايات المتحدة على العراق عام 2011 انشاء صندوق بقيمة 400 مليون دولار مخصّص لدفع تعويضات لضحايا «ستارك» وأسرى الحرب الأميركيين خلال الغزوات المتعددة التي شنتها واشنطن ضد العراق). أثناء حرب الخليج عام 1991، صار الوجود العسكري الأميركي مكرّساً وله قواعد دائمة وبنية دعم متكاملة، بعد عقد اتّفاقات «حماية» شبه استعمارية مع كلّ دول الضفة الغربية للخليج.

بهذا المعنى، فإنّ هناك تشابهاً ما بين حالتي إيران والصين، إذ إنّ البلدين يضعان نصب أعينهما هدفاً عسكرياً محدداً: مواجهة هجومٍ غربيّ، يرفده حلفاء محليون، ومنعه من بسط السيطرة الكاملة على المجال البحري الذي يحيط بالبلد وحصاره وضربه.

الفارق هو أنّ الصين تتوقّع مواجهة محدودة وعنيفة في بحر الصين الجنوبي، في اطار التنافس على النفوذ، ولكنّها تعرف ايضاً أنّ هكذا اشتباك لا يمكن أن يتطوّر الى اجتياح لبرّ الصين أو الى هجومٍ يهدف لقلب النظام وتدمير اقتصاد البلد، نظراً الى عامل الردع النووي الّذي تحوزه الصين ولا تملكه إيران - بعد، وهو تحديداً السيناريو الذي تريد أميركا منعه.

لو كانت ظروف المواجهة مختلفة، ولم يكن الخليج ساحة الحرب المحتملة، لما شكّلت أغلب أنظمة التسليح الإيرانية تهديداً للقوات الأميركية. إيران، مثلاً، ركّزت على استيراد الصواريخ الحديثة المضادة للسفن من الصين (من فئات «سي-801» و«سي-802») وتطويرها وبناء نسخ جديدة منها يفوق مداها الـ200 كيلومتر وبنظم توجيه متعددة.

هذا لا يعني شيئاً كثيراً لو كانت المواجهة تجري في عرض المحيط، حيث تقوم حاملات الطائرات والمدمرات التي ترافقها بإنشاء منطقة تحريم تمتدّ على أكثر من 400 كيلومتر في كلّ الاتجاهات، لا يمكن أن يعبر ضمنها زورق أو طائرة، ناهيك عن اطلاق صواريخ باتجاه السفن الأميركية.

في الخليج، الوضع يختلف، فالمسافة بين البرّ الايراني وقاعدة الأسطول الخامس في البحرين تقلّ عن 190 كيلومتراً، ما يعني أن أية قطعة اميركية في الخليج تقع ضمن مدى الصواريخ التي تطلقها الزوارق السريعة والطائرات، اضافة الى عددٍ ضخمٍ من المنصات الأرضية المتحركة التي تُنشر على طول الساحل الشرقي للخليج. بالمعنى نفسه فإنّ الغواصات الصغيرة، التي تنتجها الأحواض الايرانية بالعشرات، لا قيمة لها اطلاقاً في المياه الزرقاء، حيث تجول الغواصات الاميركية مع الطائرات في «فرق صيد» لقمع هذا النوع من التهديدات، ولكنّها - كالألغام البحرية - تصير سلاحاً مخيفاً في الخليج الضحل، الذي يعجّ بالأهداف ولا يعمل فيه السونار بكفاءة - اضافة الى أنّ الغواصات الاميركية الضخمة لا تقدر اصلاً على العمل والغطس في أغلب أجزاء الخليج.

هذه المعادلة تنطبق ايضاً على القواعد الاميركية في الدول المجاورة وترسانة ايران الصاروخية. يقول بعض الايرانيين إنّ صاروخ «فاتح 110»، الذي يمتاز بالدقة وقد صدرت منه ثلاثة اجيالٍ على الأقل حتى الآن، يسمّى «صاروخ لبنان» بين الإيرانيين، لأن مداه ومواصفاته تناسب الساحة اللبنانية بشكلٍ كبير، كأنّه صُمّم لأجلها، غير أنّ «الفاتح» يضع ايضاً القواعد الاميركية في قطر والامارات والسعودية تحت تهديده (اضافة، بالطبع، الى المنشآت النفطية ومرافق التصدير التي تجاور هذه القواعد)؛ وايران تحتفظ، اضافة الى الفاتح، بأعداد هائلة من صواريخ «شهاب 2» و«شهاب 3»، بعد سنوات من تراكم الانتاج، والتي يمكن استعمالها في موجات كبيرة لإغراق الدفاعات الصاروخية - سواء في الخليج أو في افغانستان.

حربٌ بلا حدود

يوجد عاملان يلخّصان أسباب التردّد الأميركي في خوض المغامرة العسكرية ضد إيران: أوّلاً، صعوبة حصر الحرب وابقائها ضمن الحدود التي تريدها اميركا. وثانياً، لأنّ الحرب ضدّ إيران تهدّد بأن تكون المواجهة الأولى التي يخوضها الجيش الاميركي ضمن شروط «الحرب الحديثة»، بمعنى وجود خصمٍ لا ينتمي جيشه للقرن الماضي، بل يعرف مسبقاً نقاط القوة الاميركية ويحضّر الوسائل التقنية لإبطال مفعولها. بتعبيرٍ آخر، فإنّ حرباً ضد إيران لن تكون ميداناً مفتوحاً لاستعراض التكنولوجيا الأميركية المتفوّقة، بل إنّ الجيش الاميركي يعرف انّه سوف يدخل الى ساحةٍ يتمّ التشويش فيها على نظام «جي بي اس»، وقد لا تتمكن الطائرات من دون طيار من الاتصال بقواعدها عبر الأقمار الصناعية، بل إنّ اميركا قد تُحرم من الاستطلاع الفضائي والالكتروني - وهذه كلّها أركان أساسية في عقيدة الحرب الأميركية اليوم (من شبه المستحيل، مثلاً، استعمال الذخائر بعيدة المدى في غياب نظام الجي بي اس، فيصير البديل الوحيد هو التوجيه باللايزر أو عبر الكاميرات، ما يستلزم أن تكون الطائرة القاذفة، أو طائرة من دون طيار، في جوار الهدف وضمن مدى الدفاع الجوي).

هذه المخاوف ليست مبالغات أو تقديرات، بل هي كلّها مبنيّة على التجربة، وعلى قدراتٍ تمّ اثباتها في الميدان. على سبيل المثال، في الشهر نفسه الذي تمكّنت إيران فيه من التحكّم بطائرة تجسس أميركية «خفية» وانزالها وأسرها العام الماضي، تفاجأ الأميركيون حين قام الإيرانيون بـ«اعماء» قمر صناعي للتجسس كان يمرّ فوق إيران، عبر شعاع لايزر ضرب عدسته على الأرجح.

العبرة من الحادثتين هي في أنّ إيران صارت تملك رادارات ووسائل استطلاع تسمح لها بتتبّع الطائرات الخفيّة والأقمار الصناعية ذات المدار المنخفض، وهذا - لمن يخطّط لحرب - يثير الكثير من المخاوف. قاذفات «البي-2» الأميركيّة، التي تعتبر رأس الحربة في أي حملة جوية، بطيئة وغير قادرة على المناورة، وتعتمد بشكلٍ شبه كامل على ميزة الخفاء حتى تنسلّ الى الأجواء المعادية وتضرب الدفاعات الجوية؛ وحين تثبت إيران قدرتها على قهر تكنولوجيا الخفاء، تصير أغلى قاذفة في العالم - تملك اميركا أقلّ من عشرين نسخة منها - هدفاً سهلاً للدفاع الجوي.

من جهةٍ أخرى، فإنّ اميركا اعتادت على جيوش «عالمثالثية» تهدّد وترغي وتزبد، ثم يتبيّن انّها هيكلٌ هشّ قائمٌ على الدعاية ويخلو من الفعالية العسكرية، إلّا أنّ انتشار الميليشيات المدعومة من ايران، واداءها في لبنان وغزة والعراق، يرسمان الحدّ بين الدعاية والجدّ، ويعطيان صورةً لا يمكن دحضها عن المستوى القتالي الذي ستواجهه أية قوة غازية. حين ضربت البارجة الإسرائيلية «هانيت» عام 2006 بصاروخ ايراني الصنع، يقول العديد من الخبراء، تأجّلت الحرب على إيران لأعوام.

كان العرب أوّل من أدخل الصواريخ المضادة للسفن الى التاريخ العسكري، حين تمكّن زورقا صواريخ مصريان من اغراق المدمّرة الاسرائيلية «ايلات» بصواريخ «ستيكس» الروسية القديمة في تشرين الأول من عام 1967. ضرب «ايلات» هزّ العقيدة العسكرية للقتال البحري على مستوى العالم، بعد أن فهم المخططون أنّ هذه الصواريخ الجديدة تمكّن قارباً صغيراً من تدمير سفنٍ تفوقه حجماً بأضعاف، إلّا أنّ العرب لم يتمكنوا من تكرار الانجاز ضدّ اسرائيل لأربعين سنة، حتى عام 2006. الفكرة ذاتها تنسحب على العبوات التي أرعبت